الحياة الطيّبة
السنة ١٦
العدد ٢٧
شتاء - ربيع ٢٠١٣ م
ملف أبحاث ودراسات

البرهان: طريق اليقين - دراسة موضوعيّة قرآنيّة -

الشيخ حسن رمضاني[١]

مدخل:

البرهان كلمة عربية يوجد خلاف في أصلها بين اللغويين، فذهب إلى أنّه مصدر «**بَرِهَ يبرَه إذا ابيضّ**»[٢]، وقال آخرون: إنّه مشتقّ من مصدر رباعي مجرّد «**برهن يبرهن برهنةً**»، بمعنى الحجّة والدليل[٣]. وليس من البعيد أن تكون هذه الكلمة في الأصل مصدر «**بره يبره**» بمعنى الابيضاض، ومن ثمَّ أُطلِقت على الكلام البيّن الذي لا إبهام فيه، أو الشيء الواضح الذي لا خفاء فيه، وبعد ذلك اشتقّ منها - بنحو الاشتقاق الانتزاعي - الفعل الرباعي «**برهن**».

وبناءً عليه، تكون نون البرهان زائدة، مع ملاحظة المادّة الأصليّة، وأصلية، مع ملاحظة الاشتقاق الثانوي. ولعلّ هذا هو معنى قول بعضهم: إنّ برهن موَلَّد[٤].

وعلى كلّ تقدير: البرهان في اللغة أخصّ من الدليل، وهو بمعنى الحجّة والبيان الواضح والدليل القاطع[٥]. وفي اصطلاح أهل المنطق هو أحد

(١) أستاذ في الحوزة العلمية.

(٢) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد: مفردات غريب القرآن، ط٢، لام، دفتر نشر كتاب، ١٤٠٤هـ.ق، ص٤٥، مادّة «بره».

(٣) الإفريقي، ابن منظور: لسان العرب، لاط، لام، نشر ادب حوزه، ١٤٠٥هـ.ق، ج١٣، ص٥١، مادّة «برهن».

(٤) المصطفوي، حسن: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ط١، طهران، مؤسسة الطباعة والنشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، ١٤١٧هـ.ق، ج١، ص٢٦٢، مادّة «برهن».

(٥) لغت نامه، ج٣، ص٤٠٤٥، مادّة «برهان».

الصناعات الخمس (البرهان، الجدل، الخطابة، المغالطة والشعر)، وهو القياس المؤلّف من اليقينيّات (الأوّليّات، المشاهدات، التجريبيّات، المتواترات، الحدسيّات والفطريّات)[١].

هذا، وقد ذكر مترجمو عصر النهضة أنّ كلمة البرهان يعادلها في اليونانيّة وفي منطق أرسطو كلمة «**أبوديكسيس**»، وقد عرّبها الفارابي بـ أفوذوقيا، وابن النديم بـ أبوديقطيقا. ويرادف هذا اللفظ في اللاتينية (دمونستراسيو) (demonstratio) وهو أيضاً بحسب الأصل اللغوي بمعنى الإيضاح[٢].

وقسّم المناطقة البرهان، مع ملاحظة نوع النسبة بين الحدّ الأوسط والحدّ الأكبر، إلى ثلاثة أقسام:

١. البرهان اللمّي، ويسمّى البرهان المطلق - أيضاً -، وهو حيث يكون الحدّ الأوسط فيه علّةً للحدّ الأكبر.
٢. البرهان الإنّي المطلق، ويسمّى -أيضاً- شبه اللمي، وهو حيث يكون الحدّ الأوسط فيه ملازماً للحدّ الأكبر، ويكون كلاهما معلولي علّة واحدة.
٣. الدليل، ووفقاً لاصطلاح المشهور، فإنّ هذا القسم هو البرهان الإنّي، وهو حيث يكون الحدّ الأوسط فيه معلولاً للحدّ الأكبر[٣].

ويعتبر البرهان أشرف أجزاء المنطق، بل المقصود الأصليّ منه[٤]، ذلك أنّه القياس الوحيد المفيد لليقين، وهو ملاك الوصول إلى الواقع، ويحتاجه الإنسان حتى في صورة عيشه منفرداً، ... بخلاف بقيّة الأقيسة المنطقيّة، فإنّها:

أوّلاً: نتيجتها غير يقينية، وبهذا اللحاظ لا يمكن اعتبارها ملاكاً للوصول إلى الواقع.

(١) انظر: ابن سينا، أبو علي: الإشارات والتنبيهات، شرح نصير الدين الطوسي، شرح الشرح أبو جعفر الرازي، قم المقدّسة، نشر البلاغة، ١٣٨٣هـ.ش، ج١، ص٢٨٧، ٢٨٩.
(٢) دانشنامه جهان إسلام، ج٣، ص٢٧٤.
(٣) ابن سينا، أبو علي: الشفاء، ص٧٩.
(٤) لغت نامه، م.س، ج٣، ص٤٠٤٦، «برهان».

وثانياً: ما دام الإنسان غير اجتماعي، ولم يقع تبادل للأفكار بينه وبين الآخرين، فإنّه لا يحتاج إليها[١].

وبعبارةٍ أخرى، إنّ حقيقة البرهان ليست شيئاً سوى الاتّكاء على المعلومات البديهيّة والواضحة مباشرة أو بواسطة مبرهنات متّكئة عليها، لأجل استنتاج المجهولات النظرية والغامضة. وهذا هو الطريق الذي يخضع أمامه الإنسان المفكّر - علم أم لم يعلم - بفطرته، ولا سبيل أمامه سوى اتّباعه، لأجل حلّ المشكلات الفكرية والمعضلات الاعتقادية التي يواجهها.

أولاً: أهمّيّة البرهان:

في القرآن الكريم ذُكِرَت كلمة البرهان ثمانيَ مرّات فقط، وبصور متعدّدة، من المفرد المجرّد عن الإضافة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً﴾[٢]، ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾[٣]، إلى المفرد المضاف ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٤]، ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾[٥]، ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٦]، ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ للهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[٧]، ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ

(١) ابن سينا، الشفاء، م.س، ص٤٧.
(٢) النساء: ١٧٤.
(٣) المؤمنون: ١١٧.
(٤) البقرة: ١١١.
(٥) الأنبياء: ٢٤.
(٦) النمل: ٦٤.
(٧) القصص: ٧٥.

رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[١]، فالتثنية ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾[٢]. ولكن استعملت كلمات أخرى - أيضاً - كالسلطان، الآية، البيّنة والحجّة. ويمكن أن نجد لكلّ واحدة منها ارتباطاً مع مفردة البرهان، وقد وقعت مورداً للاستفادة في هذه المقالة[٣].

مضافاً إلى ذلك، ولأنّ القرآن نفسه نورٌ وكتاب مبين: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾[٤]، ومنزّهٌ عن كلّ شك وترديد: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[٥]، ومبيّن لكلّ شيء: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاَءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[٦]، وملاكُ الهداية: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[٧]، وسببٌ للتذكّر: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[٨]، ووسيلةٌ للتعقّل: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[٩]، وأساسٌ للعلم: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[١٠]، فإنّنا نستطيع وبنحو القطع أن نعتبر هذه الأمور جميعاً تتحدّث عن أمر واحد هو المصداق البارز، بل الأتمّ للبرهان، وأنّ نعرّفه للعالمين جميعاً بهذا العنوان.

إنّ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ

(١) يوسف: ٢٤.
(٢) القصص: ٣٢.
(٣) انظر: أسماء البرهان وشؤونه، وهي تقع خامساً في البحث.
(٤) المائدة: ١٥.
(٥) البقرة: ٢.
(٦) النحل: ٨٩.
(٧) البقرة: ٢.
(٨) الزمّر: ٢٧.
(٩) الزخرف: ٤.
(١٠) فصّلت: ٣.

نُوراً مُبِيناً﴾[١] هو شاهد صدق على هذه الدعوى المتقدّمة، وهي أنّ القرآن أعظم برهان على حقّانيّة رسالة خاتم الأنبياء ﷺ وأكبر معجزة جاء بها ﷺ، بحيث لم يستطع أحدٌ - وليومنا هذا - أن يأتي بمثلها، ولن يستطيع أحدٌ أن يأتي بنظيرها في المستقبل.

علاوة على ذلك، فإنّ القرآن وفي كثير من الموارد، ولأجل بيان المسائل الاعتقاديّة الأساسيّة، كوجود الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[٢] -ومنها جميع الآيات التي تسلك سبيل الآثار لإثبات وجوده تعالى -، والتوحيد: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾[٣]، ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[٤]، ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[٥]، ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾[٦]، والمعاد: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾[٧]، ومن جهة أخرى في دعوته إلى الأمور المهمّة، العباديّة، والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، كالصلاة: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[٨]، والصوم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٩]، ومواجهة أئمّة الكفر: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ

(١) النساء: ١٧٤.
(٢) فصّلت: ٥٣.
(٣) الأنعام: ٧٦.
(٤) الأنبياء: ٢٢.
(٥) المؤمنون: ٩١.
(٦) الإسراء: ٤٢.
(٧) المؤمنون: ١١٥.
(٨) العنكبوت: ٤٥.
(٩) البقرة: ١٨٣.

أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾[١]، وتقسيم الغنائم: ﴿مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[٢]، نجد في كلّ ذلك أنّه اعتنى بإقامة البرهان، وحضّ الجميع - وبمناسبات متعدّدة - على التفكّر: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[٣]، والتعقّل: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٤]، والتدبّر: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ﴾[٥]. ومَنعهم عن اتّباع الظنّ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[٦]، وتقليد الآباء بلا دليل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾[٧]، والعمل لا على أساس العلم: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾[٨].

لقد دعا القرآن الكريم لعدّة مرّات، وبأساليب متنوّعة، الإنسان إلى التفكير الصحيح، ولكنّه لم يبيّن وبشكلٍ محدّد طريق التفكير المستقيم، بل وضع هذا الأمر في عهدة العقل الفطريّ للإنسان، والإدراك المرتكز في النفوس الذي يعرفه الجميع بلا استثناء وبلا أيّ اختلاف.

توضيحه: أنّنا إذا شككنا في شيءٍ، لكنّنا لم نشكّ في هذا الأمر وهو أنّ وراء ذواتنا حقائق موجودة مستقلّة عن وجودنا وأعمالنا، نظير المسائل

(١) التوبة: ١٢.
(٢) الحشر: ٧.
(٣) البقرة: ٢٦٦.
(٤) البقرة: ٧٣.
(٥) ص: ٢٩.
(٦) يونس: ٣٦.
(٧) البقرة: ١٧٠.
(٨) الإسراء: ٣٦.

المرتبطة بالمبدأ، والمعاد، أو المسائل الرياضيّة والطبيعيّة التي إن أردنا بيانها بنحو القطع واليقين، فلا بدّ أن نلجأ - بدايةً - إلى القضايا البديهية غير القابلة للترديد ولوازمها، ثمّ بعد ترتيبها بنحو فكريّ خاصّ، نستنتج في النهاية منها مطلوبنا، مثلاً نقول: زيد ممكن، وكلّ ممكن معلول، إذن، زيد معلول، أو نقول: إن كان زيد ممكناً، فهو معلول، وإن كان معلولاً، فله علّة، إذن، إن كان زيد ممكناً فله علّة. أو نقول: إن كان زيد ممكناً، فلا بدّ أن يكون معلولاً، ولكنّه ممكن، إذن، لا بدّ أن يكون معلولاً.

إنّ هذه الأشكال التي جرت الإشارة إليها، وكذا القضايا التي استندت إليها تلك الأشكال، بصفتها مقدّمات، تعتبر جميعاً من الأمور التي يستحيل على الإنسان صاحب الفطرة السليمة أن يشكّ فيها.

وحتى لو لاحظنا التشكيكات والشبهات التي أُورِدَت على هذا الأسلوب والطريق المنطقيّ، فإنّ أصحابها علموا أم لم يعلموا كان اعتمادهم في استنتاج دعاواهم ومطالبهم على الأمر نفسه الذي حاولوا الفرار منه، فمثلاً: نجدهم يقولون: لو كان المنطق والبراهين المنطقيّة طريقاً يُنال من خلاله الواقع، للزم ألاّ يقع أيّ خلاف بين المناطقة أنفسهم - وجميعهم أهل برهان - والحال أنّنا نرى اختلافاً في آرائهم[1].

إنّ هذا الكلام نفسه برهان منطقيّ، وهو يكشف عن تسليمهم - بمقتضى فطرتهم - بصحّة نهج المنطق والبرهان، واعترافهم بأصوله وأطره، بل تثبيتهم وتحكيمهم لتلك الأصول.

ولكن، نتيجةً لشبهةٍ عرضت لهم فقد وصلوا إلى نتيجةٍ خاطئة، هي: تصوّرهم أنّ استعمال المنطق يحفظ الفكر عن الخطأ سواء أكان استعمالاً صحيحاً أم لا، في حين أنّ الأمر ليس كذلك، فإنّ المنطق آلةٌ قانونية تعصم الناس عن الخطأ في الفكر، إن استعملت بشكلٍ صحيح. وعليه، فلو رأينا اختلافاً بين الباحثين، فإنّ مرجع ذلك سيكون أنّ أحد الطرفين لم

(١) وهذا ينتج عن طريق نقيض التالي، نقيض المقدّم، وهو: إذن، ليس المنطق والبراهين المنطقيّة طريقاً يُنال من خلاله الواقع.

يستعمل المنطق والبرهان بشكلٍ صحيح، لا أنّ المنطق والبرهان طريقٌ غير قابل للاطمئنان[١].

ثانياً: شموليّة البرهان:

لا يختصّ البرهان في منطق القرآن بخصوص الكلام الواضح اليقيني الذي هو ملاك الوصول إلى الواقع فحسب، وإنّما ومع الالتفات إلى موارد استعماله نستطيع أن نعمّمه لمطلق الأشياء البيّنة والواضحة المُثبِتَة للأمور بنحو القطع واليقين على نحو لا يبقى فيها أيّ شكٍ وترديد، سواء أكانت هذه الأشياء من سنخ القضايا الذهنيّة والمقولات المنطقيّة - وهي في أغلب الموارد من هذا القبيل - أم كانت من قبيل الموجودات العينية والحقائق الخارجية، وذلك كما حكى الله - تعالى - في قصّة موسى عليه السلام وبعثته، حيث إنّه بعد أن أمَرَه - تعالى - بإلقاء العصا وانقلابها ثعباناً، أمَرَ موسى عليه السلام ثانياً بقوله: ﴿**اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ...**﴾[٢]، ومع الإشارة إلى صيرورة العصا ثعباناً وابيضاض اليد، قال تعالى: ﴿**فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ**﴾.

وكذلك الأمر في قوله - تعالى -: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً**﴾[٣]، فإنّه - بناءً على بعض التفاسير - أُطلِق البرهان على الأمور العينيّة والموجودات الخارجيّة في قوله - تعالى -: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ**﴾. فبعض المفسّرين بنحو القطع وبعضهم الآخر بنحو الاحتمال ذكروا أنّ المراد بالبرهان في هذه الآية شخص رسول الله صلى الله عليه وآله، الذي يُعتَبر وجوده برهاناً فريداً ودليلاً قاطعاً على وجود خالق الكون سبحانه وتعالى[٤]، والقرينة على هذا المعنى هي

(١) انظر: الطباطبائي، محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، لاط، قم المقدّسة، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرّفة، ج٥، لات، ص٢٥٩-٢٦٢.
(٢) القصص: ٣٢.
(٣) النساء: ١٧٤.
(٤) انظر: الطباطبائي، الميزان، م.س، ج٥، ص١٥٢-١٥٤.

إفادة العطف للمغايرة، فالبرهان الذي جاءكم غير النور الذي أنزلنا.

طبعاً، من المحتمل أن يكون المراد بالبرهان في الآية المباركة القرآن نفسه الذي هو أكبر معجزةٍ لرسول الإسلام صلى الله عليه وآله وأهمّ برهان على صدق نبوّته[١].

ومن هذا القبيل - أيضاً - ما جاء في قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ**﴾[٢]، فإنّه - بناءً على بعض الاحتمالات - أُطلق البرهان على أمرٍ ليس هو البيان المنطقيّ. ولقد طُرِح العديد من الآراء في بيان المراد من (البرهان) في هذه الآية أهمّها عبارة عن:

١. العلم بحرمة الزنا وعقوبته[٣].

٢. قبح الزنا والعاقبة السيّئة للزاني.

٣. الأدلّة العقليّة والنقليّة على وجوب ولزوم الابتعاد عن المعصية.

٤. ملكة العفّة.

٥. الآيات والأمور التي ظهرت ليوسف عليه السلام، بحيث منعته عن ارتكاب المعصية.

٦. آيات العظمة والكبرياء[٤].

٧. نوع من العلم المكشوف واليقين المشهود، وهما أساس العصمة[٥].

٨. نور العصمة الإلهيّة وشعاع النبوّة اليوسفيّة[٦].

٩. السكينة التي تنزل على الأنبياء عليهم السلام والمؤمنين، بحيث تؤدّي إلى انتصارهم على الأعداء في العالمَين الصغير والكبير[٧].

وبناءً على رواية وردت عن الإمام زين العابدين عليه السلام، فقد جاء أنّ

(١) انظر: الطباطبائي، الميزان، م.س، ج٥، ص٢٥٩-٢٦٢.
(٢) يوسف: ٢٤.
(٣) انظر: م.ن، ج١١، ص١٣٣-١٣٦.
(٤) انظر: الهمداني، محمد: أنوار درخشان، ج٩، ص٥٢.
(٥) انظر: الطباطبائي، م.س، الميزان، ج١١، ص١٣٢.
(٦) انظر: الواعظ الكاشفي، حسين بن علي: المواهب العليّة، ج٢، ص٢٣٧، الكاشاني، فتح الله: منهج الصادقين، ج٥، ص٣١.
(٧) انظر: الجنابذي الخراساني، محمد بن حيدر: بيان السعادة، ج٢، ص٣٥٧.

زليخا حينما غلّقت الأبواب: «**قامت إلى الصنم فألقت عليه ثوباً، فقال لها يوسف: ما هذا؟ فقالت: أستحيي من الصنم أن يرانا، فقال لها يوسف: أتستحيين ممَّن لا يَسمع ولا يُبصر ولا يَفقه ولا يَأكل ولا يَشرب، ولا أستحي أنا ممّن خلق الإنسان وعلَّمه؟! ..**»[١]. ونُقِلَ مضمون هذه الرواية -أيضاً- من طرق العامّة عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام[٢].

إنّ أمثال هذا النوع من الروايات، وبلحاظ ما تتضمّنه، لا تتناسب وعلوّ شأن الأنبياء عليهم السلام وعصمتهم، وهي مجعولة، أو إنّها باعتبار كونها من أخبار الآحاد غير قابلة للاعتماد عليها. مضافاً إلى ذلك، لا نستطيع أن نعتبر ما ورد في هذه الرواية هو برهان الربّ الذي رآه يوسف عليه السلام. نعم من الممكن أن نقول: إنّه تزامناً مع العمل الذي قامت به زليخا مقابل صنمها انكشفت حقائق ليوسف عليه السلام من عالم الملكوت[٣]، وأنّ المراد من البرهان الذي رآه يوسف عليه السلام هو هذه المكاشفة التي حصلت له، لا ما شاهده من زليخا.

ثالثاً: الدعوة إلى الدين بالبرهان وطلبه من كلّ صاحب دعوى:

البرهان هو أحكم منهج معرفيّ في الحياة الإنسانيّة الطيّبة، ولأجل ذلك نجد القرآن الكريم يدعو نبي الإسلام صلى الله عليه وآله، وفي سبيل دعوة البشريّة إلى دين الله، للاستفادة من كلّ الوسائل الممكنة والمقنعة، وعلى رأسها جميعاً البرهان: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾[٤].

حيث طُرِحَت في هذه الآية المباركة ثلاثة أساليب لأجل الدعوة إلى دين الله، ليستفاد منها بما يتناسب مع استعداد الأفراد وبحسب الحاجة: الحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن.

(١) انظر: الزركشي، محمد بن عبدالله: البرهان في علوم القرآن، ج٤، ص١٧٩، ح٣٧.
(٢) انظر: السيوطي، جلال الدين: الدرّ المنثور، ج٤، ص٥٢٤.
(٣) انظر: الطباطبائي، الميزان، م.س، ج١١، ص١٧٠-١٧١.
(٤) النحل: ١٢٥.

أمّا الحكمة فهي: إصابة الحقّ بالعلم والعقل. وأمّا الموعظة فهي: التذكير بفعل الخير في الأمور التي يرقّ لها القلب. وأمّا الجدال فهو: المفاوضة - مع الآخر - على سبيل المنازعة والمغالبة.

والتأمّل في هذه المعاني يعطي أنّ المراد بالحكمة - والله العالم -: الحجّة التي تنتج الحقّ الذي لا مرية فيه، ولا وهَن، ولا إبهام. والموعظة هي: البيان الذي يرقّ له القلب. والجدال هو: الحجّة التي تستعمل لإضعاف مباني الخصم بالاعتماد على المسلّمات.

وبناءً عليه، ينطبق ما ذكره - تعالى - في الآية، من الحكمة، والموعظة، والجدل على: البرهان، والخطابة، والجدل المصطلح عليه في فنّ الميزان، ولكنّه - تعالى - قيّد الموعظة بالحسنة، والجدل بالتي هي أحسن[١].

هذا، وقد فُسِّرت الحكمة - في الآية الشريفة - بمعانٍ أخرى[٢]، بعضها قابل للجمع مع تفسير الحكمة بالبرهان، في حين اعتبر بعض المفسّرين أنّ الآية المذكورة على وزن قوله تعالى: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾[٣]، حيث قالوا: إنّ الذي أمر الله به النبيّ ﷺ في هذه الآية - من أنّ سبيلي هو الدعوة إلى الله على بصيرةٍ كاملة - يشير إلى هذه النكتة، وهي: أنّ الإسلام دين حجّة وبرهان، وهو لا يطلب من الناس أن يتّبعوه ويؤمنوا به على أساس الجهل. وأنّ هذا الدين يضع نظام الوجود مع كمال إتقانه واستحكامه أمام العقول، لتتفكّر فيه، ولتصل من خلال ذلك إلى اليقين بصحّة دعواه[٤].

إنّ القرآن الكريم ليس بنفسه برهاناً فحسب، ولا هو يأمر النبيّ ﷺ - فقط - بأن يضع البرهان على رأس أساليبه التبليغية، بل إنّه - في مواضع

(١) انظر: الطباطبائي، الميزان، م.س، ج١٢، ص٣٧٢.
(٢) انظر: مغنية، محمد جواد: تفسير الكاشف، ج٤، ص٥٦٤، الواعظ الكاشفي، المواهب العلية، م.س، ج٢، ص٤٠٣.
(٣) يوسف: ١٠٨.
(٤) انظر: المراغي، أحمد مصطفى: تفسير المراغي، ج١٣، ص٥٢.

متعدّدة وبمناسبات مختلفة - يطالب الطرف المقابل بالبرهان - أيضاً -، ويرفض التوقّع غير الصحيح بقبول كلّ دعوى ما لم تكن مبرهناً عليها.

ومن هنا، فإنّ القرآن الكريم في مواجهة ادّعاء الأشخاص الذين يرون أنّ الجنّة خاصّة باليهود والنصارى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى﴾، نجده يقول: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[١]، وكذلك في مقابل الأشخاص الذين يعبدون غير الله، فإنّه - بعد الإشارة إلى برهان التمانع - يقول: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَ اللهُ لَفَسَدَتَا﴾[٢]، حيث يطلب من النبي صلى الله عليه وآله أن يطالب هؤلاء بالبرهان على دعاويهم إن كانوا صادقين: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا...﴾[٣].

وكذلك الأمر نجده بعد إقامته للبراهين المحكمة عن طريق الآيات البيّنات على حقّانيّة الإله الواحد، ولزوم عبادته، واستحقاقه لذلك، بحيث يطلب من النبي صلى الله عليه وآله أن يقول للمشركين: ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٤].

هذا، مضافاً لطلبه البرهان من المشركين في الدنيا، فإنّه -تعالى- في الآخرة -أيضاً- سيطلب من المشركين وأصحاب الدعاوى الباطلة، البرهان على دعاواهم في الدنيا، وحينها سيسقط ما بأيديهم، وسيدركون أنّ الحقّ مع الله - تعالى - ورسله عليهم السلام، ويزول كلّ ما حاكوه ونسجوه: ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لله وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[٥].

إنّ منطق الإسلام الطالب للبرهان يفصح عن المحتوى القويّ والغنيّ له، وهو يسعى لامتلاك البرهان في مواجهة مخالفيه. وكيف يمكن لمن يطلب البرهان من الآخرين ألاّ تكون له عناية به؟!

(١) البقرة: ١١١.
(٢) الأنبياء: ٢٢.
(٣) الأنبياء: ٢٤.
(٤) النمل: ٦٤.
(٥) القصص:٧٥.

إنّ آيات القرآن المجيد مليئة بالاستدلالات المنطقيّة والبراهين العلميّة المناسبة لمختلف الطبقات، وذلك في المسائل المتنوعة. وهذا بالدقّة على طرف النقيض مع ما تؤكّد عليه بعض الاعتقادات المحرَّفة المعاصرة لنا، من إلغاء دور العقل في مجال تشكّل الاعتقاد، وعدّه أجنبيّاً عن الدين، مع سماحها للخرافات بأن تتسلّل إلى الدين. والحال أنّ الدين بخلوّه من العقل والاستدلال لن يمتلك الدليل على صدقه مطلقاً، وسيكون هو وما يقابله على وزانٍ واحد.

إنّ عظمة هذا المنهج الإسلاميّ (الاعتماد على البرهان، ودعوة المخالفين للاستدلال المنطقيّ) تظهر جليّةً حينما نلتفت إلى أنّ الإسلام ظهر في محيطٍ كانت تشكّل الخرافات والمسائل غير المنطقيّة أغلب عناصر تفكيره.

رابعاً: نفي البرهان عن الكفر والشرك:

على الرغم من أنّ الله -تعالى- في عدّة مواضع من كتابه العزيز طلب من المشركين والكفّار إقامة البرهان على دعاواهم، ولكن، لأنّ الكفر والشرك غير قابلين للإثبات، فإنّه يعلن بشكل قاطع أنّ عقيدة الشرك الملوّثة فاقدة للأساس البرهاني والمنطقيّ: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾[1].

وقد ذهب بعضهم إلى أنّ قوله - تعالى -: ﴿لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ قيدٌ توضيحيّ للآلهة الأخرى، وأضاف: لا يُفهم من هذا القيد أنّ هناك معبود سوى الله يوجد برهان على معبوديّته، بل على العكس من ذلك، فإنّ البرهان قام على نفي الإله الآخر[2].

واعتبر بعضهم الآخر أنّ الوجه في عدم قبول الشرك والكفر للبرهان

(١) المؤمنون: ١١٧.

(٢) انظر: الطباطبائي، الميزان، م.س، ج١٥، ص٧٤. وعبارته التالية: «وقوله: ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ قيدٌ توضيحيّ لإله آخر، إذ لا إله آخر يكون به برهان، بل البرهان قائم على نفي الإله الآخر مطلقاً» (المعرِّب).

إنّما هو بطلانهما وقال: إنّ البطلان في الواقع عدَمٌ، والعدم ليس شيئاً حتى يكون له برهان[١].

وذهب آخرون إلى أنّنا عندما ننظر ونتأمّل في ارتباط أجزاء العالم ونظام الدنيا، نجد أنّ هذه الأجزاء متّصلة ومرتبطة بعضها ببعضها الآخر، بحيث تشكّل جميعاً وحدةً واحدةً. وينشأ من هذا النظر علم يقينيّ بأنّ الناظم والمبدأ لهذا العالم هو حقيقة واحدة. ولعلّ الآية تريد الإشارة إلى هذا المعنى، وهو أنّه من غير الممكن أن يكون لمعلول واحدٍ علّتان، وأنّ ذاك الإله الآخر المدّعى الذي يعبده المشركون لا برهان عليه مطلقاً[٢].

لقد تكرّر في القرآن الكريم التعبير بهذا البيان عن الآلهة التي يعبدها المشركون وأنّها ليست إلاّ أسماء: ﴿**إِنْ هِيَ إِلاَ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ**﴾[٣]، واستُدلَّ به على بطلان عبادة الأوثان، وهذا بنفسه «**من ألطف البيان وأرقّه، وأبلغ الحجّة وأقطعها، إذ لو لم يأتِ الإنسان لما يدّعيه من دعوى بحجّة برهانية، لم يبقَ لما يدّعيه من النعت إلاّ التسمية والتعبير**»[٤].

خامساً: أسماء البرهان وشؤونها:

للبرهان بحسب الأحوال المتنوّعة والآثار المتعدّدة له، أسماء أخرى أُشير إليها في القرآن الكريم:

١- **السلطان**: هو البرهان بلحاظ كونه غير قابل للزوال وله الغلبة[٥]،

(١) انظر: الفيض الكاشاني، محمد بن المرتضى (محسن): التفسير الصافي، ج٣، ص٤١٣.
(٢) انظر: بانو امين، نصرت (بنت السيد محمد علي أمين، من كبار علماء أصفهان): مخزن العرفان، ج٩، ص٧٢.
(٣) النجم: ٢٣.
(٤) انظر: الطباطبائي، الميزان، م.س، ج٨، ص١٧٩.
ذُكر هذا التعبير في القرآن الكريم في عدّة مواضع:
الأوّل: قوله تعالى: ﴿**أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ**...﴾ (الأعراف: ٧١)، وهي الآية التي أثبتناها في المتن.
الثاني: قوله تعالى: ﴿**مَا تَعْبُدُونَ من دُونه إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا من سُلْطَانٍ**...﴾ (يوسف: ٤٠).
الثالث: قوله تعالى: ﴿**إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا من سُلْطَانٍ**...﴾ (النجم: ٢٣).
(٥) انظر: الخزاعي، الحسين بن علي: روض الجِنان وروح الجَنان، ج١٠، ص٣٢٩.

أو بلحاظ دقّته[١]، أو لأنّ الخصم والمخالف يصل معه إلى طريقٍ مسدود ولا يجد أمامه أيّ فرصةٍ للفرار[٢]، أو لأنّ له الهيمنة على العقول والأفهام[٣]، أو لجميع هذه الحيثيات، أُطلق عليه اسم (السلطان) في آيات القرآن المجيد. مثاله ما ورد في عدّة آيات، من عدم تأييد الله المشركين وعبدة الأوثان بالسلطان على عبادتهم: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[٤]، ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَ لله أَمَرَ أَلاَ تَعْبُدُوا إِلاَ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[٥]، ﴿إِنْ هِيَ إِلاَ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾[٦]، ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٧]، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾[٨]، ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً﴾[٩]، وما ورد من نفي السلطان عمّن ادّعى لله ولداً: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[١٠]،

(١) انظر: الخزاعي، الحسين بن علي: روض الجِنان وروح الجَنان، ج١٠، ص٣٢٩.
(٢) انظر: الشيرازي، ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، لاط، لام، لان، لات، ج٩، ص٢٢٣.
(٣) انظر: الطباطبائي، الميزان، م.س، ج١١، ص١٧٧.
(٤) الأعراف: ٣٣.
(٥) يوسف: ٤٠.
(٦) النجم: ٢٣.
(٧) الأنعام: ٨١.
(٨) الحجّ: ٧١.
(٩) الكهف: ٥١.
(١٠) يونس: ٦٨.

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾[١]، وكذلك ما جاء في بيان الغضب الإلهيّ على من يجادل في آيات الله بغير سلطان، وتقبيح عملهم: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[٢]، ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[٣]، و- أيضاً - طلب السلطان من المشركين على دعواهم الاستماع إلى كلام الملائكة: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾[٤]، وأخيراً - لا آخراً - إرسال موسى عليه السلام بالسلطان إلى فرعون وأتباعه: ﴿بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾[٥]، ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾[٦]، ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾[٧]، ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُبِيناً﴾[٨]، ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾[٩].

وفي جميع هذه الموارد اعتبَرَ أغلب المفسّرين - إن لم يكن أجمعهم - أنّ المراد بالسلطان هو: البرهان أو الحجّة القطعيّة التي لا تقبل الشكّ والترديد، بل - بناءً على رأي بعضهم - إنّ السلطان في أغلب آيات القرآن هو بمعنى الحجّة[١٠]، سوى ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ

(١) الصافات: ١٥٦.
(٢) غافر: ٣٥.
(٣) غافر: ٧٥.
(٤) الطور: ٣٨.
(٥) هود: ٨٦.
(٦) المؤمنون: ٤٥.
(٧) غافر: ٢٤.
(٨) النساء: ١٥٣.
(٩) الذاريات: ٣٨.
(١٠) انظر: الطوسي، محمد بن الحسن: التبيان، ج٤، ص١٨٩.

﴿أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾[١]، ونظائرها من الآيات المتعلّقة بنبي الله موسى عليه السلام، فإنّ بعض المفسّرين، بعد تصريحه بكون المراد من السلطان في هذا المورد هو البرهان والحجّة القاطعة التي تتسلّط على العقول والأفهام، أضاف أنّه: «**ليس من البعيد أن يكون المراد بإرساله بسلطان مبين أنّ الله سلّطه على الأوضاع الجارية بينه وبين آل فرعون، ذاك الجبّار الطاغي**»[٢].

طبعاً، بعضهم الآخر فسّره بالحجّج الواضحة[٣]، والمعجزة[٤]، وتبدّل العصا إلى ثعبان[٥]، والولاية، بمعنى السلطنة على جميع موجودات العالم[٦].

٢- **الآية**: البرهان أمارةٌ على صدق صاحبه في أنّه على حقّ. ومن هنا، عُبّر عنه في بعض الموارد بـ (الآية)، كقوله -تعالى-: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾[٧]، حيث أطلَقَ الآيات على العصا، واليد البيضاء، وغيرهما من الأمور الخارقة للعادة التي ظهرت على يد النبي موسى عليه السلام وأثبتت صدقه[٨]. والحال أنّ الله -تعالى- ذكر بالخصوص العصا واليد البيضاء بعنوان (برهانان)، قال تعالى: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ...﴾[٩].

٣- **الحجّة**: بلحاظ كون البرهان أيقن طريق وأتقن أسلوب لإحقاق الحقّ وإزهاق الباطل، فقد عُبِّر عنه في كثير من الموارد بـ (الحجّة)، وهي القول الذي يُقصَد به إثبات شيءٍ أو إبطاله[١٠]،

(١) هود: ٩٦.
(٢) انظر: الطباطبائي، الميزان، م.س، ج١٠، ص٣٨٠.
(٣) انظر: اللاهيجي، محمد بن علي (شريف): تفسير اللاهيجي، ج٢، ص٤٧٦.
(٤) انظر: الطبرسي، الفضل بن الحسن: مجمع البيان، ج٢، ص٢٩٠.
(٥) انظر: الكاشفي، المواهب العليّة، م.س، ج٢، ص٢٩٠.
(٦) انظر: الخراساني، بيان السعادة، م.س، ج٢، ص٣٣٧.
(٧) المؤمنون: ٤٥.
(٨) انظر: الطباطبائي، الميزان، م.س، ج١٥، ص٣٤.
(٩) القصص: ٣٢.
(١٠) انظر: الطباطبائي، الميزان، م.س، ج١٨، ص٣٥.

كقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[١]. ففي هذه الآية الشريفة بعد أن أشار الباري تعالى إلى البراهين التي أقيمت في الآيات السابقة على نفي عبادة الأصنام، وإبطال ربوبيّة الأجرام السماويّة، وإعطاء الأمان للمؤمنين، يقول تعالى ما مفاده: إنّ هذه الأدلّة والبراهين كانت الحجّة التي آتيناها إبراهيم عليه السلام على قومه.

٤- **البيّنة:** ذُكِرَ البرهان في عدّة موارد بلحاظ أنّه يفرّق بين الحقّ والباطل، ويميّز أحدهما عن الأخر بعنوان (البيّنة)، نظير قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾[٢]. وقد ذكر أكثر المفسّرين أنّ المراد بـ (البيّنة) في هذه الآية هو: البرهان والحجّة الحقّة والبيان الكامل[٣]، أو الحجّة الواضحة والدليل القطعيّ الحسّي أو العقليّ[٤]، أو الحجّة الواضحة[٥]. وبعضهم طبّقها على شخص رسول الله[٦] صلى الله عليه وآله أو القرآن نفسه[٧].

وبناءً عليه، فإنّ حصيلة المراد من الآية - وفقاً لنظر أغلب المفسّرين - أنّ أهل الكتاب لم يسلكوا طريق التفرقة والمخالفة في مقابل نبي الإسلام صلى الله عليه وآله ورسالته، إلاّ من بعد ما قام لديهم البرهان والحجّة الكاملة من كتبهم على حقّانيّته وصحّة نبوّته، ولكنّهم مع ذلك أصرّوا على إنكارهم ومعاندتهم.

سادساً: أنواع البرهان في القرآن:

استفاد القرآن الكريم - لأجل بيان المسائل التي تهمّه - من الأنماط

(١) الأنعام: ٨٣.
(٢) البينة: ٤.
(٣) انظر: القرطبي، محمد بن أحمد: التفسير الجامع، ج٧، ص٤٦٤.
(٤) انظر: الشيرازي، محمد: تقريب القرآن إلى الأذهان، ج٣٠، ص٢٠٥.
(٥) انظر: الجويباري، يعسوب الدين: البصائر، ج٥٧، ص٩٦٣.
(٦) انظر: الطبرسي، مجمع البيان، م.س، ج١٠، ص٧٩٣.
(٧) انظر: الكواشي، موفق الدين: كشف الحقائق، ج٣، ص٣٣٢.

المتعدّدة للبرهان، مع ملاحظة المناسبة بين الموضوع والمستوى الفكريّ للمخاطَبين، وسهولة المطلب أو صعوبته. فمثلاً: نجد أنّه في الموارد التي تحدّث فيها مع عامّة الناس غير المثقّفين أو قليلي الثقافة - ولكنّهم من أصحاب القلوب الحيّة غير المتعصّبة - يعتمد أسلوب الانتقال من المعلول إلى العلّة المسمّى في الاصطلاح بـ (الدليل) أو (البرهان الإنّي)، ويبيّن لهم المطالب من خلال هذا الطريق. وهذا ما نجده في الآيات التي بيّنت وجود الله - تعالى - من خلال إظهار آياته في الآفاق والأنفس وأكدّ عليه. والأنموذج البارز لهذا النوع من الآيات، وببيان كلّي قوله - تعالى-: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾[١] (وما سواه في الحقيقة ليس سوى سراب). ففي هذا القسم من الآية تمّ الحديث بشكل يتناسب مع فهم عامّة الناس والطبقة المتوسّطة في المجتمع، ولكن في الجزء التالي منها تمّ الحديث بشكل يتناسب مع الطبقة المثقّفة في المجتمع وخواصّ الأفراد. هنا، يتغيّر أسلوب الاستدلال، ولا نجد الحديث عن دلالة الآيات على وجود الله - تعالى-، بل على العكس، يُستدلّ بالله - تعالى-، وهو علّة الأشياء على وجود معلولاته: ﴿ **أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾، أمّا نفس وجوده -تعالى- الذي هو من هذه الجهة بديهيّ غير قابل للشكّ والترديد، فهو غنيٌّ عن الإثبات والاستدلال: ﴿**أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾[٢]، بلّ إنّه - تعالى- هو الحقّ دالٌّ على ذاته بذاته: ﴿**شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَ هُوَ**﴾[٣]، وهو الشاهد أيضاً على الوجود الظلّي للأشياء الأخرى. ومن هنا، أُطلق على الله - تعالى- اسم (البرهان) في بعض الأدعية: «**اللهمّ إنّي أسألك باسمك يا حنّان يا ديّان يا برهان...**»[٤].

ويتفاوت الاستدلال على ذات الله - تعالى - من خلال ذاته، وهو

(١) فصّلت: ٥٣.
(٢) إبراهيم: ١٠.
(٣) آل عمران: ١٨.
(٤) انظر: الكفعمي، إبراهيم بن علي: البلد الأمين، ج١، ص٤٠٢.

برهان شبه لمّي عن الاستدلال السابق الذي كان برهاناً إنّيّاً أو دليلاً. كما أنّ الاستدلال على الأشياء من خلال ذات الله - تعالى -، وهو برهان لمّي يمتاز عن كلا نوعي الاستدلال المتقدّمين.

إنّ الاستدلال الأوّل هو من قبيل الاستدلال المتعارف والعاديّ الذي يستطيع عامّة الناس دركه، على خلاف الاستدلالين الأخيرين اللذين يحتاج فهمهما إلى نوع من المعرفة الراقية فوق المتعارفة. ومن هنا، أطلَق أهل العرفان والحِكمة المتعالية على البرهان الذي يُستدَلّ به على ذاته - تعالى- من خلال ذاته اسم برهان (الصدّيقين)، أي الأفراد المميّزين.

وبتعبير بعضهم، فإنّ ذيل الآية (٥٣) من سورة فصّلت خاصّ بالخواصّ الذين يستشهدون بذات الله - تعالى - على ذاته، ولهذا وجّه الله - تعالى - الخطاب الموجود في آخر الآية إلى النبيﷺ بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[١].

والتفسير الآخر المشهور للآية المتقدّمة هو: أنّها ناظرة إلى إعجاز القرآن الكريم، وحقّانيّة دعوى رسالة نبيّ الإسلامﷺ[٢].

وسواء أكان البرهان لمّيّاً أم إنّيّاً، مطلقاً أم دليلاً، فإنّه أحد أنواع القياس الخمسة، والقياس على نحوين: اقترانيّ واستثنائيّ. ومن هنا، نستطيع أن نعرض القياس بإحدى هاتين الصورتين.

وقد ذكر الله - تعالى - البراهين في بعض الموارد بنحو يتناسب والأقيسة الاستثنائيّة، كما في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَ اللهُ لَفَسَدَتَا﴾[٣]، (ولكنّهما لم تفسدا، فليس فيهما آلهة إلاّ الله). ومثله - أيضاً - ما جاء في قوله - تعالى-: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَبْتَغَوْا إِلَى

(١) انظر: الفيض الكاشاني، الصافي، م.س، ج٤، ص٣٦٥.

(٢) انظر: الطباطبائي، الميزان، م.س، ج١٧، ص٤٠٤. وللعلامة الطباطبائيقدس سره تحقيق في المعرفتين الآفاقيّة والأنفسيّة ذكره في الجزء السادس من الميزان، ص١٧٠-١٧٣، استشهد فيه على هاتين المعرفتين بالآية المذكورة في البين.

(٣) الأنبياء: ٢٢.

ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾[١]، (ولعزلوه عن عرشه، والحال أنّ الأمر ليس بهذه الصورة، إذن، فليس مع الله الواحد آلهة أخرى). والمورد الثالث قوله -تعالى-: ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[٢]، (ولكنّ واقع الأمر ليس كذلك، إذن، فليس مع الله الواحد آلهة أخرى).

وتارةً أخرى ذكرها بنحو يتناسب والأقيسة الاقترانيّة، كما في قوله -تعالى-: ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾[٣]. والقياس المشار إليه هنا يمكن عرضه بإحدى الصورتين التاليتين:

الأولى: إنّ هذه الأجرام السماوية تغرب، وكلّ ما يغرب لا يمكن أن يكون خالقاً، إذن، هذه الأجرام السماوية لا يمكن أن تتّصف بالخالقيّة.

الثانية: إنّ هذه الأجرام لكونها تغرب فليست مطلوبةً ومحبوبة، والخالق لا بدّ أن يكون مطلوباً ومحبوباً، إذن، هذه الأجرام لا تتّصف بالخالقيّة[٤].

سابعاً: آثار اتّباع البرهان:

١- **نيل الحقيقة:** إنّ المرء الذي يتّبع البرهان ينال الواقع وحقائق الأشياء. فهذا إبراهيم عليه السلام الذي أُريَ ملكوت العالم: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[٥]، وأعطاه الله الحجج القاطعة والبراهين الساطعة: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾[٦]، إنّما اهتدى إلى الحقّ والواقع - على الرغم من وجود النزعات الانحرافيّة الكثيرة، والدعاية الواسعة لعبدة الأوثان المثيرة للشكوك - ببركة اتّباعه لتلك الحجج. وقد نادى بين قومه بوضوح: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ

(١) الإسراء: ٤٢.
(٢) المؤمنون: ٩١.
(٣) الأنعام: ٧٦.
(٤) هو قياس من الشكل الثاني، حيث يكون الحدّ الأوسط فيه محمولاً في كلتا المقدّمتين.
(٥) الأنعام: ٧٥.
(٦) الأنعام: ٨٣.

﴿وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[١].

لقد قال إبراهيم عليه السلام هذه الجملة حين رؤيته لأفول الشمس، والقمر، وكوكب الزهرة، فصرّح بعدم صلاحيّتها للربوبيّة، وهو عليه السلام باتّباعه لهذا الاستدلال البرهانيّ قد خطّ دليل بطلان الشرك والاعتقاد بالآلهة الزائفة.

٢- **التخلّص من الشكّ**: إنّ الاعتماد على البراهين الواضحة والالتزام بها، يزيل الشكّ والترديد، وهما آفتا الحركة التكامليّة للإنسان. ومن هنا، نجد أنّ الله - تعالى- يقول: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[٢]. فبعد التأكيد على عدم المماثلة بين المرء الذي يمتلك الحجّة والبيّنة ومعه شاهد يشهد بصدقه، والمرء الذي لا يمتلك شيئاً ممّا تقدّم، يخاطب النبيّ صلى الله عليه وآله بقوله: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ... فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾، أي إنّك بامتلاكك للبيّنة والبرهان لا ينبغي لك أن تتردّد في حقّانيّة القرآن.

وهذا ما يؤكّد عليه بعض المفسّرين، حيث يصرّح في تفسيره لذيل هذه الآية بأنّ قيام البيّنة وشهادة الشاهد و... أسبابٌ لإزالة الشكّ ونفيه[٣].

٣- **التمتّع بالأمان**: حين زعم المشركون- اعتماداً على جهلهم وغرورهم - أنّهم في أمان، وأنّ نبيّ الله إبراهيم عليه السلام يخاف أن يصل إليه من آلهتهم سوء، ردّ عليهم عليه السلام بقوله: إنّكم يا من تعبدون الأصنام بلا حجّة وبرهان، وفي الوقت ذاته تتوهمّون أنّكم في أمان ولا تخافون. هل يا تُرَى أنا الذي أملك برهاناً على عبادة الإله الواحد هو من

(١) الأنعام: ٧٩.
(٢) هود: ١٧.
(٣) انظر: الطباطبائي، الميزان، م.س، ج١٠، ص١٧٩.

ينبغي أن يحسّ بالأمان، أم أنتم الذين لا تملكون أيّ برهان على شرككم وعبادتكم للأوثان؟: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1].

إنّ الإنسان الذي يتّخذ موقفاً معيّناً، اعتماداً على البرهان، ويَثبُت على هذا الأساس، لهو خليقٌ بالإحساس بالأمان.

وهذا نبيّ الله سليمان عليه السلام عندما تفقّد الطير ولم يجد الهدهد ضمنهم، قال: ﴿**لاَعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لاَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ**﴾[2].

إنّ النبي سليمان عليه السلام يشير في هذه الواقعة بشكلٍ ضمنيّ إلى أنّ البرهان واتّباع الدليل البيّن ينجّي المرء من الإحساس بعدم الأمن وبالعذاب، ويجعله في المقابل في حصن الأمان والاطمئنان.

٤- **التخلّص من الاتّباع الأعمى وغير المنطقيّ:** المتّبع للبيّنة والبرهان لا يمكنه أن يسير خلف أيّ شخصٍ أو قبيلةٍ أو أمّة كيفما كان، ما لم يقدَّم له الدليل والبرهان، فإن حصل له ذلك قام حينها بتقديم يد العون للآخرين، ومتى ما وجد منهم كلاماً أو مطلباً مخالفاً للحجّة والبرهان، فإنّه سيبتعد عنهم، حتّى لو استلزم ذلك منه البقاء وحيداً.

فنبيّ الله شعيب عليه السلام حين أصرّ قومه عليه وبقوّة على الاتّباع غير المنطقيّ لآبائهم المشركين، وطلبوا منه ألاّ يصدّهم عن نهج آبائهم وأجدادهم، بل في بعض الأحيان حذّروه من استمراره في سلوك الدرب الذي اختاره لنفسه، قال: ﴿**يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً...**﴾[3].

والمعنى: يا قومِ أنصفوا أنفسكم، أرأيتم إن كنت على بيّنةٍ وحجّةٍ

(١) الأنعام: ٨١.
(٢) النمل: ٢١.
(٣) هود: ٨٨.

قاطعةٍ من الله، فهل تستمرّون بالتعامل معي بهذا الأسلوب؟!

٥- **الانتصار على المخالفين:** إنّ المرء الذي يعتمد البرهان هو في الواقع متّصلٌ بالحقّ، مستمسكٌ بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها. ومن المعلوم أنّه في المواجهة بين الحقّ والباطل، فإنّ النصر دائماً حليف الحقّ، والباطل مهزوم لا محالة: ﴿**بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ**﴾[١]، ﴿**وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً**﴾[٢].

وبناءً عليه، فإنّ الإنسان الذي يتّبع البرهان، وينظّم عقيدته وعمله على أساسه، هو كالحقّ منتصرٌ في كلّ الميادين.

إنّ سرّ غلبة الأفكار التوحيديّة - التي كان النداء الإلهيّ هو المؤسِّس لها - على الأفكار الإلحاديّة والمنحرفة للشرك والكفر، والانتصار النهائيّ للموحّدين على الكافرين والمشركين، يرجع هو الآخر - أيضاً - إلى هذه النكتة: ﴿**كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي**﴾[٣]، ﴿**فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ**﴾[٤]. وفي قوله الله - تعالى - لموسى عليه السلام: ﴿**قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ**﴾[٥].

والمعنى - والله العالم - إنّنا سنؤيّدك بأخيك، ونجعل لكما قوّةً وحجّةً وبرهاناً، فلا يصل إليكما الأعداء، بسبب ما نعطيكما من الآيات، وستَغلبون أنتما ومن اتّبعكما، اعتماداً على تلك البراهين والحجج الواضحة[٦].

٦- **الابتعاد عن الأوهام والخرافات:** إنّ أفضل نهج في محاربة الأوهام والخرافات هو التفكير البرهانيّ والالتفات إلى الحقائق والبيّنات. ومن هنا، فإنّ الله - تعالى - يذكّر عبدة الخرافات بشكل مكرّر

(١) الأنبياء:١٨.
(٢) الإسراء: ٨١.
(٣) المجادلة: ٢١.
(٤) المائدة: ٥٦.
(٥) القصص: ٣٥.
(٦) انظر: الطبرسي، مجمع البيان، م.س، ج٧، ص٣٩٥، الراغب الأصفهاني، مفردات غريب القرآن، م.س، ص٣٤٦، القرطبي، التفسير الجامع، م.س، ج١٣، ص٢٨٧.

- وبلسان النداء الإلهيّ - أنّ أعمالهم وعقائدهم ليس لها أساس منطقيّ وبرهانيّ، ويؤكّد لهم في المقابل على أنّ عليهم إقامة الدليل والبرهان على ما يقولون أو يفعلون.

ومن جملة الأوهام والخرافات التي ذكرها القرآن الكريم باهتمام ونهض لمواجهتها: الشرك وعبادة الأوثان: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾[١]، ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾[٢]، ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٣]، ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾[٤]، ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَ لِلهِ أَمَرَ أَلاَ تَعْبُدُوا إِلاَ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[٥]، ﴿إِنْ هِيَ إِلاَ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾[٦]، ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٧]، ﴿قَالَ هَؤُلاَءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾[٨]، ﴿هَؤُلاَءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلاَ يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً﴾[٩]، والادّعاء بأنّ الله له ولد: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ

(١) المؤمنون: ١١٧.
(٢) الأنبياء: ٢٤.
(٣) النمل: ٦٤.
(٤) الأعراف: ٧١.
(٥) يوسف: ٤٠.
(٦) النجم: ٢٣.
(٧) الأنعام: ٨١.
(٨) الحجر: ٧١.
(٩) الكهف: ١٥.

﴿وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[١]، والقول: إنّ الملائكة بنات الله: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾[٢]، ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾[٣]، ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى﴾[٤]، والعنصرية: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٥]، ...

ثامناً: الآثار السلبيّة لعدم الاعتناء بالبرهان:

١- **اتّباع الظنّ والتخمين:** في كثير من آيات القرآن الكريم، وحيثما كان هناك نفي للدليل والبرهان أو العلم والمعرفة، كان هناك اتّباع للظنّ واعتماد على التخمين، نظير ما نجده في كلامه - تعالى - مخاطباً المشركين في ما يرجع إلى الأوثان التي يعبدونها: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾[٦]. فهذه الأوثان ليست سوى أسماءٍ بلا مسمّيات لا واقع لها، ولم ينزّل الله أيّ حجّة أو دليل على معبوديّتها.

ومنه - أيضاً - ما نقرؤه في قوله - تعالى -، عندما يشير إلى قول من لا يصدّق بالآخرة، ويسمّي الملائكة بنات لله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلاَئِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى * وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَ الظَّنَّ...﴾[٧].

كذلك، حين ينقل المنطق الباطل والوهن للمشركين القائلين: ﴿لَوْ شَاء اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾، ويقول للنبيﷺ أن يقول لهم: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَ

(١) يونس: ٦٨.
(٢) الصافات: ١٤٩.
(٣) الصافات: ١٥٦.
(٤) النجم: ٢١.
(٥) البقرة: ١١١.
(٦) النجم: ٢٣.
(٧) النجم: ٢٧-٢٨.

﴿تَخْرُصُونَ﴾[١]، ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَ يَخْرُصُونَ﴾[٢].

و- أيضاً - حينما ينقل مقولة المدّعين قتل المسيح عليه السلام، نجده تعالى يقول: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً﴾[٣].

٢- **الانقياد للأهواء النفسانيّة:** إنّ المرء إمّا أن يكون متّبعاً للبيّنة والبرهان، فيرتّب جميع شؤون حياته وينظّمها على هذا الأساس، وإمّا أن يعمل على طبق هواه ورغباته النفسانيّة، فلا يكون له هدف - بالتالي - سوى تأمين تلك الرغبات.

وبلا شكّ، فإنّ المرء الذي يُعرِض عن الحجّة والبرهان لا بدّ وأن يصنَّف ضمن الفئة الثانية. وإنّ أفكاره وأعماله الفاسدة التي كان يراها جميلة، لن تكون عاقبتها - في النتيجة - إلاّ البطلان الأبديّ.

إنّ التقابل بين هاتين الفئتين مشهود بنحو واضح في قول الله - تعالى -: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ﴾[٤].

ونظير هذا التقابل يمكن أن يشاهَد - أيضاً - في سورة أخرى، حيث يقول الله - تعالى - عن الآلهة التي يعبدها المشركون: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾[٥].

٣- **الإحساس بعدم الأمن:** حين أراد عبدة الأوثان (قوم ثمود) من نبي الله صالح عليه السلام، وبعبارة: ﴿قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا﴾[٦]، إكراهه على الالتحاق بهم، أجابهم عليه السلام بقوله: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا

(١) الأنعام: ١٤٨.
(٢) الزخرف: ٢٠.
(٣) النساء: ١٥٧.
(٤) محمد: ١٤.
(٥) النجم: ٢٣.
(٦) والمعنى - والله العالم - أنّ ثمود كانت ترجو من صالح عليه السلام أن يكون من أفرادها الذين تأمل الانتفاع بخدماتهم، لا أن يأتيهم بدعوةٍ جديدة ينهاهم فيها عن عبادتهم الزائفة.

مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾[1].

٤- **الفشل والانكسار**: إنّ القرآن الكريم مليء بذكر السِيَر المؤلمة، المفيدة للاعتبار عن الأقوام الذين وقفوا في مقابل الحجج والبراهين الإلهيّة الواضحة، والذين حكموا نتيجة لذلك على أنفسهم بالهلاك والبطلان.

ومن النماذج البارزة لهذه السِيَر ما يقصّه علينا القرآن الكريم ممّا جرى على أهل مدين بعد أن جاءهم شعيب عليه السلام بالحجج والبيّنات، فما كان منهم إلاّ أن وقفوا موقف الرفض لها، فكان عاقبة أمرهم أنّ الله حكمَ عليهم بالهلاك. قال تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيّاً إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ * وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾[2].

(١) هود: ٦٢-٦٣.
(٢) هود: ٩٢-٩٣.